(نازك الملائكة1)

الأسرة والبيئة والثقافة :

تهدف هذه السطور إلى الكشف عن العوامل التي أثرت في شعر نازك وفي شاعريتها وفي ثقافتها النقدية ، إيمانا منا بأن النشاط الأدبي ، كغيره هو وليد مجموعة من العوامل والمؤثرات ، إضافة إلى ما تمتلكه شخصيته من إمكانات وقدرات تميزه من غير من الناس.

وعلى هذا قام النقد الرومانتيكي الفرنسي ممثلا بمدام دستال وسانت بيف و وتين ورينان وحيث إننا نهدف إلى دراسة نازك دراسة مفصلة لنصل إلى فهم صحيح الشعرها؟ فإننا سنكتفي بالوقوف على العوامل التي أنضجت تجربتها الشعرية وعمقت قدراتها الفنية ، وأثرت في مسيرتها في طريق الشعر الحر على الخصوص

ولعل أولى العوامل المؤثرة في نشاطها الأدبي والشعري ، نشأتها في أسرة تعنى بالأدب عناية فائقة ، وهي أسرة شاعرة ، كان من شعرائها أبوها صادق الملائكة وخالاها جميل الملائكة وعبد الصاحب الملائكة . وقد سبق هؤلاء كلهم والد جدتها (محمد حسن كبة) إذ كان واحدا من شعراء القرن التاسع عشر وكان حجة في الفقه الإسلامي . وأمها سليمة عبد الرزاق والتي عرفت بين أفراد أسرتها (بسلمى) والتي كانت توقع قصائدها بأم نزار

وكانت أختاها سعاد واحسان تعنيان بالأدب والثقافة وتمارسان الكتابة .

ويبدو أن شاعرتنا قد افادت من ثقافة والدها في اللغة والنحو ، وعلى يديه درست النحو – كما تقول – وقد ظهر أثر ذلك في نقدها اللغوي .

أما أمها قد كانت من أشد الناس تأثيرا في حياتها الشعرية والنفسية ، فقد كانت الشاعرة الصغيرة تجلس إليها لتستمع إلى ما تحفظه من الشعر العربي . وكانت تعرض عليها قصائدها المبكرة ، فتبدي لها أمها رأيها فيها .

و أما تأثيرها في حياتها ونفسيتها ، فقد أقترن ببعض مواقفها ، وانعكس في العديد من قصائدها ، ومنها قصيدتها الرائعة (ثلاث مرات لأمي) التي تحدث عنها النقاد وفي مقدمتهم شكري عياد والشاعر نزار قبانى

ولقد كان في نشأة الشاعرة في ظل هذه الأسرة ، أثر في تطلعاتها الأدبية ، وفي مواقفها ، فقد كانت أسرتها موسرة الحال ، وعلاقات أفرادها مع بعضها البعض قائمة على الاحترام ، وهو ما هيأ لشاعرتنا مكانة خاصة في ظل تلك الأسرة ، ولذلك نشأت في أحضان الدلال ، يرعاها الجميع ويوليها الحب والتقدير ، ويحترم شخصيتها ويمنحها حرية التفكير.

ولعل للبيئة الثقافية الشعرية التي تلون به بيتها ، أثر في توجهها إلى القراءة والتحصيل فقد كانت تقضي فراغها في قراءة الكتب وحفظ الشعر ونظمه والحوار فيه مع من تصادفه في دارها ، ما عمق إحساسها المبكر بالشعر والأدب والثقافة .. .

وليس هذا فحسب ، فقد اقترنت ثقافتها الأدبية بالثقافة الفنية ، فكانت تمارس الرسم والتصوير ، وظهر ذلك واضحا في بعض قصائدها .

وغنيت بالموسيقى ، إذ كانت قد انتمت إلى معهد الفنون الجميلة ببغداد ، لدراسة العزف على العود ، واستمرت في دراستها الموسيقية ست سنوات ، وكانت معجبة بألحان تشايكوفسكي ، ونظمت في ذكرى وفاته قصيدة جديدة .

وتنمية لثقافتها اللغوية ، فقد درست اللغة الانكليزية في المعهد الثقافي البريطاني ببغداد ودرست اللغة الفرنسية لعدة سنوات و وقد هيأ لها كل هذا ، السبيل إلى السفر إلى الولايات المتحدة ، حيث أوفدت على حساب مؤسسة روكفلر . .

وكان لهذه الرحلة العلمية أثر شديد في توجهها لدراسة النقد حيث تعرفت على كبار النقاد الأمريكيين وفي مقدمتهم كما تقول : ريتشارد بلاكمورو النتيت ، ودونالد استادفر وتلمور وغيرهم .

وبعد ثلاث سنوات من عودتها قبلت في جامعة وسكونسن في الولايات المتحدة الدراسة الأدب المقارن ، فزاد ذلك من اطلاعها على الآداب الأوربية كالألمانية والإيطالية والفرنسية ، أضافة إلى معرفتها بالأدب الانكليزي .

وخلال هاتين السنتين ، كتبت أبحاثا بالإنكليزية وأخرى بالعربية ، نشر بعضها في صحيفة الأهرام القاهرية عام 1966.

وأتيح لها السفر إلى بعض العواصم العربية ، وخاصة بيروت والقاهرة، لتسهم في إلقاء المحاضرات عن الشعر والأدب ، أهم ذلك الاسهام عند تأليفها كتابا عن علي محمود طه المهندس ، وهو دراسة نقدية تحليلية .

وقد أتيح لها أن تزور بعض العواصم الأوربية ، مما عمق ثقافتها وزاد من خبرتها بالحياة ومعرفتها بالشعوب ، واطلاعها على النماذج الإنسانية المختلفة .

لقد كان لثقافتها الواسعة العميقة ، أثر واضح في شاعريتها ، وفي تطلعاتها في ارتداد الجديد في عالم الشعر ومجاهله المختلفة ، مما كان ينبئ عن ريادتها لحركة الشعر الحر .

ولا نحسب أن شاعرة معاصرة أتيح له من ظروف الثقافة وسبل المعرفة مثلما أنيح الشاعرتنا الرائدة . كما لا نظن أن كل تلك الشبل والوسائل والظروف قد ذهبت دور ان يكون لها أثر واضح في فنها الشعري ، ومنهجها النقدي.

والذي يستوجب الانتباه حقا ، هو العلاقة بين طبيعة الشاعرة وبين توجهها الثقافي فقد كانت في تكوينها السايكولوجي ووضعها النفسي إنسانة رقيقة الشعور شديدة الإحساس ملتهبة العواطف ، وكان كل حدث مهم يهز مشاعرها ويدق عواطفها ويعمق إحساسها بالحياة والمثل العليا .

ولعل أهم هذه الأحداث ، موت أمها بحضورها ، على أثر فشل عملية جراحية أجريت لها في لندن . وكانت الشاعرة قد صحبتها لإلمامها باللغة الانكليزية . وكان لموتها في حضورها أثر شديد في نفسها ، ولايزال كل مشهد مماثل يثير عواطفها ويعمق إحساسها بالحزن والألم ، بل كان هذا أحد الأسباب التي وجهتها لشعر الحزن والألم وشكل أحد العوامل في موقفها التشاؤمي من الحياة ، وهذا ما عبرت عنه في ما كتبته في مذكراتها الخاصة ، ولذلك لا نندهش إذا رأيناها تعجب بالشاعر الانكليزي (كيتس)وتسميه شاعر الموت الأكبر ، وتتأثر بفلسفته المتشائمة . كما تتأثر بفلسفة شوبنهاور

وتعجب بأشد الشعراء العرب المعاصرين تشاؤما ، وهو محمد عبد المعطي الهمشري ، بل أنها لتميل ميلا خاصا إلى شعرائنا المحدثين الذين أنشدوا شعرا ذاتيا عاطفيا رومانتيكيا أمثال علي محمود طه ومحمود حسن إسماعيل وابراهيم ناجي وصالح جودة وبدوي الجبل وعمر أبي ريشة وبشارة الخوري وأمثالهم . من ضربوا على أوتار الحزن والأسى.

وقد وجهتها قراءتها لشعر هؤلاء وإعجابها بهم ، إلى أن تربط بين هذا اللون من الشعر وبين المواقف التي جسدها هذا الشعر وعبر عنها بالشعر الصادق .

ولقد تجمعت كل هذه العوامل لتحدد لنازك الملائكة نوع شعرها في هذه المرحلة الأولى من حياتها ، وهي المرحلة التي تنتهي بنهاية الخمسينيات من هذا القرن ، فقد كان لطبيعتها الرقيقة وإحساسها الحاد بالأشياء وثقافتها الواسعة العميقة ، وما صادفها من مواقف مؤلمة وظروف صعبة ، كان لهذا كله ، أثر في أن يطبع شعرها بطابع عاطفي رومانتيكي حزين.

وكان يقوي هذا الإحساس ، بعض التأثيرات الثقافية (فتأثرها بشوبنهاور و كيتس وقراءتها للفلسفات المادية الأوربية ، وسفرها للولايات المتحدة وانقطاعها عن المثل الشرقية بقيمها الروحية وأفكارها الدينية ، واتصالها بالفكر العلمي القائم على الاستدلال المنطقي والمادي ، وغير ذلك مما يتصل بالمعرفة العميقة ، لعل كل هذه الأسباب قد شككتها في وجود خالق مهيمن لهذه الخليقة ، فنشأ في نفسها فراغ فاغر رهيب لا يملأه شيء).

يضاف إلى هذا ، أنها كانت تنزع إلى مثالية أفلاطونية ، وقد جعلها هذا تسعى إلى بناء عالم مثالي (يوتوبيا) يخلو من الظلم والقسوة ويجعل من الإنسان مخلوقا لا مثيل له . ولذلك راحت تفتش عن قواعد الأخلاق ومظاهر النبل ، ولكنها لم تجد لعالمها هذا مكانا على الأرض ، فخابت خيبة شديدة وعبرت عنها بشعرها الحزين وموقفها المتشائم .

ويمكننا أن نسمي هذه المرحلة الأولى من حياتها ، والمرحلة الرومانتيكية

وقد انعكس هذا الموقف في شعرها تيار رومانتيكية ذاتيا عاطفيا يعبر عن موقفها تجاه الموت والحياة والطبيعة و أسرارها وألغازها . وراحت تناقش ذلك وتحاول الوصول إلى أسراره العميقة ، كما راحت تتحدث عن حب مثالي رسمته لنفسها وربما قد صدمت به في تجاربها المبكرة ، لكن تعبيرها عنه جاء مغلفا بغلالة رمزية

إلا أن نازك في كل مواقفها وتجاربها كانت تصدر عن إحساس صادق شعور وفنا

أن ضعف إيمان نازك بوجود خالق مسيطر ، قد أسلمها إلى الضياع، وسيطر على تفكيرها، وحرمها من متعة السعادة والاستقرار . لكنها حين اهتدت إلى معرفة اللغة معرفة صحيحة ، وآمنت بوجوده إيمان عميقا سنة 1957 بدأت تتخذ موقفا جديدا إزاء الحياة والناس وما يتصل بهما ، وبدا أنها تغادر عالمها الحزين شيئا فشيئا ، لتسير في درب يتخذ من الواقع وسيلة مجدية لمواجهة الحياة ، وهو طريق يجعل من التفاؤل سمة ظاهرة في شعرها ، فإذا هي تغادر موضوعاتها الذاتية وقصائدها العاطفية وتبتعد عن التغني بالألم والبكاء على الأحلام الضائعة والآلام الميتة لتسلك درب الحياة الواقعية ، وتستنبط موضوعات تجاربها من حياة الأمة ومشاكل المجتمع في العراق ولبنان وفلسطين ومصر وغيرها . وتتحدث عن واقعنا حديثا صريحة بعيدا عن الأحلام والرؤى . وهذا ليس معناه ، أن الشاعرة قد غادرت شعرها الحزين دون رجعة ، فالحق أن شعرها الرومانتيكي الحزين قد ضرب في أعماق وجدانها ، وشكل سمة شديدة في معظم دواوينها ولذلك فان سلوكها الجديد في طريق التفاؤل لا يمكن أن يصبح ظاهرة متميزة كظاهرة الحزن الا بعد أن يستقر في نفسها ، تجربة عميقة ناضجة تحتاج إلى وقت طويل ، و مجموعتاها (يغير ألوانه البحر) و(للصلاة والثورة) أول ما يشير إلى هذا التيار التفاؤلي الجديد .

الشعر :

أصدرت نازك الملائكة خلال مسيرتها الشعرية ثماني مجموعات شعرية هي على التوالي : عاشقة الليل 1947. شظايا ورماد 1949. قرارة الموجة 1957، شجرة القمر ١٩٩٨ مأساة الحياة وأغنية للإنسان ١٩٧٠، بغير ألوانه البحر ١٩٧٧، للصلاة والثورة ١٩٧٨ وأول دواوينها – عاشقة الليل . يمثل شعرها المجموع ما بين 1941 – 1946، وهذا معناه أن مسيرتها الشعرية إلى آخر مجموعاتها ، قد استغرق منها حوالي أربعين عاما

ومعظم الذين تحدثوا عن شعرها قد أكدوا على النغم الحزين الذي يجعل منه

ظاهرة من أبرز ظواهره ، فقد أشار إلى ذلك العديد من الدارسين ومنهم أخت الشاعرة احسان الملائكة وبدوي طبانة وابراهيم السامرائي وأحمد أبو السعد وجليل كمال الدين وسلمان

هادي طعمة وماجد أحمد السامرائي ومحمد مصطفى هدارة والطاهر أحمد مكي واحسان النص وعبد الله أحمد المهنا وجابر عصفور وسالم الحمداني ، وغيرهم.

ولهذا الاجماع دلالة في رصد التيار الذي يسود شعر نازك ، وهو تيار يستسقي مادته من روافد كثيرة اجتماعية وفكرية وثقافية ، كما يستقيه من تجارب الشاعرة نفسها .

وربما يدرك الدارس سبب تأكيدنا لهذه الناحية ، لأن شعر نازك كله تقريبا وعلى مدى أربعين عاما تلون بهذا اللون الرومانتيكي ، على الرغم من أن مواقف الشاعرة – كما ذكرنا – بدأت تتخذ منعطفة تفاؤلية بدا واضحا منذ نشرت مجموعتها (غير ألوانه البحر) و(للصلاة وللثورة).

والذي نريد أن نقرره هو أن معظم تجارب نازك قد استقتها الشاعرة من حياتها الطويلة الممتلئة بالأحداث ، ومن حياة المجتمع البشري ، وما يتصل بهذه الحياة من أسرار الكون وألغاز الطبيعة وغيرها .

وموقف نازك في كل هذه التجارب موقف واع يمتلك العمق والصدق ، وحيث انها – كما رأينا – كانت شاعرة مفرطة في الحساسية ، رقيقة الشعور ، لذلك تلونت أفكارها الشعرية بالألوان المعتمة ، فتلفعت بالسواد ، وسادها نغم حزين أنتهى إلى موقف سلبي متشائم يرى كل شيء في الحياة على غير ما يتمناه ويحلم به .

ومن هنا فقد صدرت في معظم تجاربها وفقا لهذا الموقف.

وموضوع القصيدة لدى نازك – هو الإنسان – وما يتصل به– كما ذكرنا ولذلك لم يخرج هذا الموضوع عن محوره ، بل صار مركزا له .

والجدير بالذكر أن العناية بالإنسان – في موضوع القصيدة الحديثة – كان قد سبق اليه من قبل نازك شعراء المهجر وجماعة الديوان وجماعة أبولو ، ولا شك أن شاعرتنا قد تأثرت ، حين قرأت لهؤلاء الشعراء ، بموضوع القصيدة كما أنها أعجبت بمجموعة منهم كما ذكرنا – وربما أشارت نازك في كتابها (قضايا الشعر المعاصر) إلى إيثار المضمون في الشعر الحر. ولذلك كانت عنايتها بهذا المضمون الإنساني الخاص ، أسوة بمن سبقها من الشعراء، وتعبيرا عن نظرتها الإنسانية الخاصة تجاه الإنسان.

ومن هنا كان تأكيد الشاعرة على موضوعات الإنسان في حدود موته وغربته وما عمل بذلك من أسرار الطبيعة والكون وغيرها .

ولقد أحتل الإنسان في شعر نازك قدرة كبيرة من رعايتها واهتمامها ما يدل على أنها تضع الإنسان وحريته وحقوقه فوق كل اعتبار

ولقد وضعت الشاعرة في تصورها عالما مثاليا للمجتمع البشري يسوده الحب وينعم فيه الإنسان بالسعادة وتذوب فيه أحقاد البشر . ومن أجل ذلك تصورت عالما مليئا بالمدن طافحة بالقيم زاخرة بالمثل . وأطلقت على هذا العالم (اليوتوبيا) . .

ولذلك تألمت حين رأت هذا الإنسان يصرعه الظلم ويقتله الجوع والعري ، فبكت لشقائه وتألمت لبؤسه فقالت :

حدثونا عن رخاء ناعم	فوجدنا درب جوع وعريا
وسمعنا عن نقاء وشذى	فرأينا حولنا قبحا وخزيا
ورتعنا في شتاء قاتل	وكفانا بوسنا شبعا وريا
وعرينا وكسونا غيرنا	وكسبنا القيد والدمع السخيا
وزرعنا وحصدنا زرعنا	وجنينا ظلمة الدرب العبوسا

ولقد امتلكت قصائد الشاعرة ، الدقة في رصد الواقع الإنساني، وجاء فكرها من النضح والعمق بما يدل على حسها الإنساني الذي لا يعرف النظرة الضيقة ، فهي تقول: (فقد كنت أحب السلام والمودة والصداقة والعواطف الإنسانية – وحين لا أجد ذلك أخيب وأحزن أشد الحزن وأحس أن ممثلي العليا تتحطم على صخرة واقع قاس لا يرحم)). وفي النص التالي ما يؤكد هذا الإحساس فهي تقول :

لنكن أصدقاء

نحن والعزل المتعبون

نحن والأشقياء

نحن والتائهون بلا مأوى

نحن والصارخون بلا جدوى

نحن والأسرى

نحن والأمم الأخرى

في بلاد الزنوج

في الصحاري وفي كل أرض تضم البشر.

ومن المضامين الجديدة التي تضمنها الشعر الحديث ، مسألة الحياة والموت. وإذا كان الموت في حقيقته شيئا مخيفة – ولاشك في ذلك . فإن شاعرنا المعاصر قد فلسف ظاهرته في ظل مواجهته للحياة التي أتعبته وأهانته واستلبت كرامته ، إذ لم تستطع الحياة المعاصرة أن تعترف للإنسان بقيمته وكرامته وحريته . لما يسودها من قوانين جائرة وأنظمة مستبدة وأطماع واسعة . .

لذلك عبر الشاعر الأوربي – قبل الشاعر العربي – عن يأسه بجدوى الحضارة المعاصرة وعن رفضه لوجهها الناصع الخادع ، وعن تمرده على حقيقتها القائمة ، ووصل به عجزه ويأسه إلى الترحيب بالموت خلاصا للإنسان من حياته الشقية .

وقد كانت قصيدة (الأرض اليباب) وقصيدة (الرجال الجوف) للشاعر الناقد الانكليزي توماس ستيرن اليوت ، تجسيدا لهذا الموقف الاجتماعي على الحضارة المعاصرة، وتابعه في ذلك العديد من شعرائنا المحدثين في مقدمتهم نازك والسياب وصلاح عبد الصبور وأحمد عبد المعطي حجازي ومحمود درويش .

وقد جرت نازك وراء العديد من الشعراء الذين هتفوا بالموت خلاص من عذاب الحياة من أمثال شكري والعقاد والشابي والهمشري ، ومن قبل كانت قد أعجبت بكيتس وسمته شاعر الموت الأكبر.